الفصل الثاني

الميدانين الاقتصادي والاجتماعي

الفصل الثاني

الميدانين الاقتصادي والاجتماعي

أولاً : الميدان الاقتصادي

ازدهرت الحياة الاقتصادية بوجه عام في مصر في العصر الأيوبي، بفضل نظام الإقطاع الجديد الذي جاء به الأيوبيين من الشام، الذي حدّ من النظام الإقطاعي السابق الذي ساد في العصر الفاطمي والمتمثل بامتلاك الأراضي الزراعية على نطاق واسع وهو ما أدى إلى نشاط في الحياة الاقتصادية في البلاد بصورة عامة[1].

لم تتغير الحياة الاقتصادية في مصر في عصر صلاح الدين تغييراً جوهرياً، عما كانت عليه سابقاً. ويلاحظ إن طابع الترف الذي كان يصبغ العصر الفاطمي، كان هو الغالب في الحياة الاقتصادية بمصر، لأن صلاح الدين كان مهتم بهدف واحد عبأ له جميع القوى والاقطاعات، ذلك الهدف هو تخليص العالم الإسلامي من الاحتلال الصليبي، لذا كان همه الأول تقوية الصف الإسلامي بشتى السبل، فكانت إصلاحاته كلها تدور حول هذا الهدف، ومن ضمنها محاولة الاستفادة من إمكانيات مصر الاقتصادية عن طريق تحسين أحوال الفلاحين، وتخفيف المكوس لتنشيط التجارة[2]، فاتبع صلاح الدين سياسة خاصة به فيما يخص مصروفات الدولة وواردتها، وكيفية جمع تلك الواردات، وكذلك في الأسلوب الذي اتبعه لتغيير بعض نظم الفاطميين في مصر، غير أنه ومن غير شك استفاد من الكثير من نظم الدولة النورية في الشام، والفاطمية في مصر[3]. فشهدت مصر ازدهاراً اقتصادياً ظل مشهور طوال تاريخها[4].

واعتبر بعض المؤرخين أن الإدارتين الزنكية والأيوبية تعكسان الازدهار الظاهر في الحياة الاقتصادية لاهتمامهما بالزراعة ووسائل الري خاصة، أو من خلال التغيير والتعديل في نوعية الضرائب التي كانت ترد إلى خزينة الدولة، أو من خلال علاقاتهما الاقتصادية الوثيقة بالدويلات والممالك المجاورة، فأقيمت المنشآت العمرانية وازدهرت من خلالها الحركة التجارية، وكان هذا لاهتمام السلاطين الأيوبيين بالشؤون الاقتصادية وتنظيم مؤسساتها المالية، ليتراءى لنا من خلالها أهمية هذه التنظيمات رغم انشغال رجال الإدارتين الزنكية والأيوبية بالحروب الداخلية والخارجية على حد سواء[5]، وقد نقل الأيوبيين ومن انتقل معهم إلى مصر مظاهر هذا الاهتمام الاقتصادي في الشام والأنظمة المالية التي عمل بها هناك.

فعلى الرغم من سكوت المصادر التاريخية عن بعض التنظيمات والأمور الاقتصادية، في فترات معينة من التاريخ، فان هذا لايعني عدم وجودها، ولاسيما بمصر في العصر الأيوبي بل

([1]) حسن: مصر في العصور الوسطى، 449 .

([2]) المقريزي: الخطط، 250/1، 298 ؛ سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 38 ؛ محمود محمد الحويري: مصر في العصور الوسطى، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، (القاهرة، 1996)، 230 .

([3]) نوري: سياسة، 409-410 .

([4]) البير شاندور: صلاح الدين الأيوبي البطل الأنقى في الإسلام، ترجمة: سعيد أبو الحسن، ط2، دار طلاس، (دمشق، 1993)، 97 .

([5]) ماجد عرسان الكيلاني: هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، ط3، دار الفرقان، (عمان، 2003)، 285 ؛ عبد الرحمن: إدارة بلاد الشام، 107 .

من المؤكد أن المصادر باهتمامها بالقضايا العسكرية والسياسية كانت قد انشغلت عن ذكر النظم الحضارية[1].

ونتيجة لذلك حدث بعض التغيير في مجال المراكز الاقتصادية في مصر، إذ لم يكن للقاهرة زمن الفاطميين من المركز الاقتصادي ما صار لها زمن الأيوبيين، إذ أن الفسطاط هي التي احتلت هذه المكانة بينما كانت القاهرة مقراً لبلاط الخلفاء الفاطميين، وما يتعلق به من المواكب والرسوم والاحتفالات استمرت وزادت مكانة القاهرة الاقتصادية زمن المماليك[2].

وكان من أهم موارد الدولة إذ ذاك الزراعة والصناعة والتجارة، أما الزراعة فلمصر شهرتها بهذا المجال منذ القدم، وذلك بسبب خصب النيل، ولها كذلك شهرتها في غلات خاصة كالقطن والقمح والقصب والفاكهة. وأما الصناعة فثم فكرة خاطئة وهي أن مصر كانت في جميع عصورها التاريخية أمة زراعية خالصة، مع إن عدداً كبيراً من أبناء مصر كانوا يكسبون عيشهم عن طريق الصناعة، وكانوا يجمعون أحياناً بينها وبين الزراعة والتجارة[3].

1. الزراعة :

اعتمدت مصر في حياتها الاقتصادية –طوال تاريخها- على الزراعة بوجه خاص، فبالزراعة اشتغلت غالبية أهلها، لوجود نهر النيل، وعلى الإنتاج الزراعي عاش معظم سكانها[4] وعن طريقها تحسنت أحوالهم المعاشية[5]. ومن دونها يعم الجوع والبلاء بدليل الأزمات الاقتصادية التي مرت بها مصر زمن الأيوبيين نتيجة انخفاض فيضان النيل ومن أمثلة ذلك ما حدث سنة 597هـ/1201م، في عهد السلطان العادل الأيوبي، "إذا احترق البحر (جف النيل) احتراقاً عظيماً... واشتد بالناس الجوع وأكل بعضهم بعضاً، وأكلوا الميتة... وهرب أكثر أهل مصر إلى الغرب والى الحجاز واليمن والشام... وكان يقوم الرجل فيذبح ولده الصغير، وتساعده أمه على طبخة، ويأكلونه... وحصر من كفنه السلطان في مدة عشرة أيام فكانوا مائة ألف وعشرين ألف. وصلى خطيب الإسكندرية في يوم واحد على سبعمائة جنازة من أعيان الناس، خارج عمن لا يعبأ به..."[6]. ومهما يكن في هذه الأقوال من مبالغات، فإنها تدل على سوء أحوال البلاد وأهلها، وما كانت تتعرض له من أزمات خطيرة في حالة عدم وفاء النيل[7].

فالأيوبيين واجهوا أعداء كثيرين، ولذا احتاجوا إلى أموال كثيرة يعدون بها الجيوش والأساطيل، لذا اهتموا بالزراعة باعتبارها المورد الأول لخزانة الدولة وللأهالي الذين يؤدون الضرائب للدولة[8]، فكان من نتائج السياسة المستنيرة التي انتهجها الأيوبيين أن اتسعت ميادين الفكر وتطور الاقتصاد وازدهرت الزراعة[9].

([1]) نوري: سياسة، 410 .

([2]) العريني: الشرق الأدنى، 210/1 .

([3]) حمزة: الحركة الفكرية، 64 .

([4]) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، تحقيق: كرم البستاني، دار صادر، (بيروت، 1992)، 40 ؛ القلقشندي: صبح الأعشى، 300/3 ؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك، 146 ؛ الحويري: مصر في العصور الوسطى، 230 .

([5]) سلام: الأدب في عصر صلاح الدين، 156 .

([6]) الداوداري: كنز الدرر، 148/7-149 ؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 173/6 .

([7]) عاشور: الأيوبيون والمماليك، 147 .

([8]) ابن إياس: تاريخ مصر، 76/1 ؛ الخربوطلي: مصر العربية، 344-345 .

([9]) هاملتون جب: صلاح الدين الأيوبي، ترجمة: يوسف أيبش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت، 1973)، 204 ؛ محمد صديق حسن: "سياسة الأيوبيين الزراعية"، مجلة آداب الرافدين، العدد (48)، كلية الآداب ، جامعة الموصل، (2007)، 167 .

فلأجل أن يجنب السلطان صلاح الدين البلاد ويلات المجاعات التي تسببها الحروب اعتنى بالزراعة ووسائل الري اعتناءً بالغاً، لتنبت الأرض أطيب الثمرات، وتنتج من كل زوج بهيج[1]، فحفر السلطان صلاح الدين وغيره من الأمراء عدداً من الترع، وطهروا الترع القائمة وأقاموا الجسور ونمّوا وسائل الري وأقاموا الخزانات وتوفرت مياه الري، وكثرت زراعة الأرز، كما انتشرت زراعة الذرة في الصعيد ولم تكن معروفة من قبل[2].

وقد تعاونت مصر والشام في تبادل المحاصيل الزراعية، وتعزيز المصالح الاقتصادية، وتموين الجيوش بالثروات اللازمة ،كما وقف الإقليمان جنباً إلى جنب أمام اعتداءات الصليبيين الغادرة،وتزويد الجيش الإسلامي بكل ما يلزم من مواد غذائية وعتاد[3]. فتبادل الإقليمان المنافع الزراعية من خلال خبرات الفلاحين القادمين من الشام،وإدخال بعض المحاصيل الزراعية إلى مصر.

كما دخل مصر في هذه الفترة نظام الإقطاع ، الذي ارتبط بالزراعة ارتباطاً وثيقاً، من أجل إنقاذ الأرض الزراعية في مصر من الإهمال نتيجة المجاعات وموجات الجفاف التي كانت تمر بها البلاد، فعن طريق هذا النظام يمكن إعادة تعمير الأرض والاستفادة من خيراتها[4].

فكان أهم واجبات المقطع في مصر في العصر الأيوبي،الاهتمام بالزراعة، وإمداد الفلاحين بالتقاوي[5].

ومن القوانين المتبعة في الزراعة في تلك الفترة إذا نبت المحصول أرسل صاحب الإقطاع إلى السلطة يطلب منها إرسال مندوب سلطاني لمسح الأراضي المزروعة حتى يتمكن من تقدير الخراج المقرر عليها[6]، وعند الحصاد يأخذ الفلاح نصيبه وتكون القسمة بحضور شهود مقابل أجور يأخذوها من صاحب الإقطاع والفلاح، ويدفع رسوماً تعرف بالحقوق، وتقدر بدرهمين أو أربعة دراهم عن كل فدان ما عدا الغلة[7]، ويخضع الفلاح في مصر وبلاد الشام إلى قيود كثيرة كإجباره على الفلاحة ومنعه من مغادرة الإقطاع وإذا هرب يعاد بالقوة[8]، وعلى وعلى الفلاح أن يقدم لصاحب الإقطاع الضيافة والهدايا في مختلف المناسبات[9].

وعلى الرغم من تعرض الحياة الاقتصادية لاسيما الزراعة إلى الكثير من الحوادث الطبيعية مما أدى إلى انحطاط الإنتاج الزراعي في بعض الأحيان[10] إلا أن عبد اللطيف البغدادي الذي زار مصر يصف لنا جانبا من الحالة،فيذكر: "وأما أرض مصر فلها أيضاً خواص منها أنه لايقع لها مطر إلا احتفال به وخصوصاً صعيدها فأما أسافلها فقد يقع بها مطر جود لكنه لايفي بحاجة الزراعة. وأما دمياط والإسكندرية وما داناهما فهي غزيرة المطر ومنه يشربون وليس بأرض مصر عين – ولانهر سوى نيلها"[11]. نجد إن العصر الأيوبي عصر

([1]) الصلابي: صلاح الدين الأيوبي، 343 .

([2]) الخربوطلي: مصر العربية، 345 .

([3]) الصلابي: صلاح الدين الأيوبي، 343 .

([4]) القلقشندي: صبح الأعشى، 50/4 ؛ المقريزي:الخطط ،279/1، السلوك، 156/1 ؛ حسن: مصر في العصور الوسطى، 449 ؛ بهجت: أثر الحضارة السلجوقية، 106/1 .

([5]) ربيع: النظم المالية، 34 .

([6]) القلقشندي: صبح الأعشى، 458/3 ؛ إبراهيم علي طرخان: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكتاب العربي، (القاهرة، 1968)، 246 .

([7]) طرخان: النظم الإقطاعية، 249 .

([8]) السبكي: معيد النعم، 54 .

([9]) طرخان: النظم الإقطاعية، 252 ؛ الصائغ: عصر الملك الكامل، 132 .

([10]) الصائغ: عصر الملك الكامل، 132 .

([11]) الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، تحقيق: علي محسن عيسى مال الله، دار الحكمة، (بغداد، 1987)، 67-68 .

بركة وازدهار في مصر والشام حتى بعد وفاة السلطان صلاح الدين. فقد اعتنى الأيوبيين بالزراعة، والتي ما كان لها أن تزهو بغير الاهتمام المتواصل بنظام الري اهتماما بالغاً[1].

واستمرت عملية الاهتمام بالنظام الزراعي في مصر، ففي عصر السلطان الملك الكامل نجد اهتماماً واسعاً من قبل السلطان بنظام الري وتحسين حال الزراعة بفضل الأعمال الإصلاحية التي قام بها الكامل ومنها الزراعة[2].

وأمر السلطان الصالح نجم الدين أيوب الأمير جمال الدين أبي الفتح موسى بن يغمور أن يمنع زراعة الحشيشة في بستان الكافوري[3] –حيث كان يتناوله الفقراء- "فدخل ذات يوم فرأى فيه منها شيئاً فأمر بأن يجمع فجمع وأحرق"[4].

2. الصناعة :

المعروف أن مصر اشتهرت دائماً بأنها إقليم زراعي، وما فيها من صناعات إنما اتخذت مادتها الخام من الزراعة، ومن قبيل ذلك صناعة المنسوجات والزيوت والعطور التي تصدرها أحياناً، أما الصناعات التي تقوم على مواد مستوردة فكانت قليلة كالمصنوعات الحديدة التي تنتجها تنيس[5]، ودلاص[6]، كما إن المنسوجات الحريرية التي عرفت صناعتها مصر كانت تعتمد على ما يرد من الشام من الحرير الخام، واقتصر استيراد الجلود على ما هو نادر منها ما لم يكن في مصر ما يماثلها[7]، وظل السلطان صلاح الدين وخلفائه وأمرائه يعتنون بالصناعات بالقاهرة وكانت صناعة الثياب مزدهرة في العصر الأيوبي سواء في تنيس أو غيرها[8].

فبفضل المنتوجات الخاصة بالأنسجة ومنها الحرير الخام القادم من الشام، توسعت صناعة النسيج في مختلف المدن المصرية ومنها مدينة تنيس، حيث كان أهلها أصحاب الأموال والثراء، وحاكه يقومون بحياكة ثياب الشروب الكتانية التي لا يعمل مثلها في الدنيا "وكان يصنع منها للخليفة ثوب يطلق عليه اسم البدنة لا يدخل فيه من الغزل –سداء ولحمة- غير أوقيتين وينسج باقية بالذهب بصناعة محكمة لا تحتاج إلى تفصيل ولا خياطة، تبلغ قيمته ألف دينار غير طراز تنيسي ودمياط"[9].

أما المنسوجات الكتانية فأهم مراكزها الإسكندرية ودمياط وتنيس التي اشتهرت بما تخرجه من المنسوجات التي اختصت بها فأنتجت قماشاً رقيقاً من الكتان اشتهر باسم الشرب بلغت القطعة الواحدة منه مئة دينار ما كان ينسج في دمياط النوع الأبيض منها، وما صنع في تنيس كان بألوان مختلفة، فضلاً عن المنسوجات الحريرية الموشات بالذهب ازدهرت في هذه

([1]) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، 364 .

(6) الاسكندري وآخرون: تاريخ مصر، 252-253 .

([3]) البستان الكافوري: أنشأه الأمير أبو بكر محمد بن طغج بن جف الإخشيد أمير مصر، واعتنى به الإخشيد، وجعل له أبواباً من حديد، ولما استبد أبو المسك كافور الإخشيدي بإمارة مصر كان كثيراً ما يتنزه به، وكانت خيوله بهذا الميدان، وظل هذا البستان عامراً إلى سنة 651هـ/1253م . المقريزي: الخطط، 271/2-272 .

([4]) المقريزي: الخطط، 421/2 .

([5]) تنيس: جزيرة في بحر مصر قريبة من البرمابين الفرما ودمياط،والفرما في شرقيها.الحموي:معجم البلدان،51/2.

([6]) دلاص: كوره بصعيد مصر على غربي النيل، تشتمل على قرى وولاية واسعة. الحموي: معجم البلدان، 459/2 .

([7]) العريني: الشرق الأدنى، 198/1 ؛ الخربوطلي: مصر العربية، 347 .

([8]) ضيف: تاريخ الأدب العربي، 52 .

([9]) المقريزي: الخطط، 499/1 .

المواضيع، وبلغ عدد الأنوال[1] في تنيس نحو خمسة آلاف نول، وتولى النسيج للرجال والنساء[2]. كما كان هناك أنواعاً معينة من المنسوجات المصرية أحرزت شهرة عالمية في أوربا في تلك العصور مثل قماش الفستيان الذي نسب إلى الفسطاط وهذه أهم الصناعات النسيجية التي ازدهرت في العصر الأيوبي[3]. ولاريب في أن المصنوعات المتنوعة التي كانت تقوم بصناعتها مدن بلاد الشام قد أثرت في الأمارات والدويلات التي كانت في ذلك العصر،وكان لهذا أثره البالغ في الحياة الاقتصادية والاجتماعية في تلك البلاد في ذلك العصر[4] العصر[4] حيث كانت مصر إحدى هذه الدول التي تأثرت بالصناعة الشامية، سيما وإذا ما عرفنا عرفنا أن بلاد الشام اعتمدت بالدرجة الأولى على الصناعة في حياتها الاقتصادية بينما اعتمدت مصر في كثير من الأحيان على الزراعة، ولكن موجات الجفاف التي كانت تجتاح البلاد المصرية من وقت لآخر أجبرتها في كثير من الأحيان على العمل بالصناعة لتضمن لنفسها الحياة في ظل تلك الظروف.

وحسب المادة التي قدمناها عن الصناعة في مصر، أنها تعكس مدى التقدم والتطور الذي شهدته مصر في ضوء ما توفر من مواد أولية لاسيما وان هذه الصناعات كانت منظمة، فقد قام الصناع بتأجير غرف خاصة أصبحت بمثابة المعامل استخدمت بمزاولة الحياكة علاوة على دور الطراز التي كانت تابعة رسمياً للدولة حتى أنشئ لها ديوان خاص له ناظر وموظفون وعمال مسئولون عن توفير ما يلزم هذه الصناعة[5]، إلى جانب هذه الصناعات فإننا نجد قيام صناعة أخرى في بلاد الشام ومن ثم في مصر تتمثل بالصناعات البحرية[6].

فقد كان وقوع بلاد الشام ومصر على ساحل البحر المتوسط والبحر الأحمر عاملاً مساعداً في إنشاء أسطول بحري أولاه الأيوبيين عناية فائقة فقاموا بإنشاء السفن الحربية والتجارية[7] وكان هناك دور مسؤولة عن صناعة هذه السفن، وينفق عليها ديوان الأسطول التي التي أنشأه الأيوبيين في مصر لهذا الغرض[8].

وكان الخشب والكتان الذي استخدم في صناعة الحبال من أهم المواد الأولية التي ساعدت علي قيام هذه الصناعة[9] فمن الأخشاب المستخدمة في بناء السفن المصرية خشب السنط، الذي عرفت مدينة بهنسا[10] بزراعة أشجاره[11].فضلاً عن خشب الأرز المستورد من الشام والأناضول[12].

([1]) الأنوال: ومفردها نول: خشبة الحائك التي يلف عليها الثوب والمنول والحائك الذي ينسج الوسائد ونحوها نفسه ذهب (أو الحائك نفسه ذهب) بواسطة النول . ابن منظور: لسان العرب، 4583/51 .

([2]) الحموي: معجم البلدان، 473/2 ؛ زكريا بن محمد بن محمود القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، (بيروت، 1960)، 193 ؛العكيدي: التنظيمات ،91-92.

([3]) عاشور: الأيوبيون والمماليك، 150 .

([4]) محمد: المجتمع الإسلامي، 129 .

([5]) ابن مماتي: قوانين الدواوين، 330 .

([6]) الصائغ: عصر الملك الكامل، 139 .

([7]) أحمد مختار العبادي وعبد العزيز سالم:تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، دار الأحد، (بيروت،1972)،216.

([8]) ابن مماتي: قوانين الدواوين، 348 ؛ المقريزي: الخطط، 17/3 .

([9]) العبادي وآخرون: تاريخ البحرية، 216 .

([10]) بهنسا: مدينة بمصر من الصعيد الأدنى غربي النيل، ليست على ضفة النيل. الحموي: معجم البلدان،516/1.

([11]) ابن مماتي: قوانين الدواوين، 348 .

([12]) سعاد ماهر: البحرية في مصر وآثارها الباقية، دار الكتاب العربي، (القاهرة، 1967)، 170 .

ويذكر: "أن السلطان صلاح الدين قد أمر بتعمير أسطول آخر من مصر... بالإضافة للأسطول المتواجد في الشام"[1]. إلا أن الأستاذ الدكتور إحسان عباس يذكر أن السلطان صلاح الدين لم ينشأ أسطولا شامياً ولا غرابة في ذلك، لأن موانئ الساحل الشامي كانت في يد الصليبيين في تلك الفترة، فلم يكن صلاح الدين في حال تمكنه من استخدام أي ميناء شامي، وكانت دور الصناعة في صور وغيرها قد دخلت في حوزة الصليبيين[2]، فربما يكون السلطان صلاح الدين قد استخدم أهل هذه المدن وخبراتهم في بناء الأسطول المصري.

اهتم السلطان صلاح الدين بتطوير الأسطول البحري وذلك بتقوية أجهزة الدفاع والحراسة على السواحل المصرية، وبعد وفاته أصاب الأسطول الإهمال، إلا أن السلطان الملك الكامل أعاد لهذا الأسطول ودور صناعته أهميته السابقة[3].

ويتضح من ذلك إن الدولة الأيوبية في مصر، امتلكت أسطولاً قوياً تابعاً للسلطة المركزية بفضل اهتمامها بالجانب الصناعي، وهذا ما فرضته الظروف بضرورة إعطاء أهمية وجهد كبير لتطوير هذا الأسطول، خدمةً لظروفها العسكرية التي كانت تعيشها [4].

3. التجارة :

ظلت الطرق التجارية البرية القديمة والتي تبدأ من الصين والهند حتى سواحل الشام على البحر المتوسط، بالإضافة إلى مصر التي امتازت بموقعها الجغرافي على طريق التجارة بين المشرق والغرب[5].

لقد ارتبط شمال الشام بطريق تجاري بري مع مصر عن طريق الكرك[6] غزة إلى مصر، كما ربط هذا الطريق منطقة السواحل والثغور في الشام ومصر[7].

ومن الطرق التجارية البحرية التي ربطت الشام بمصر الطريق البحري من الشرق الأقصى إلى البحر الأحمر، ثم يتجه شمالاً بعد أن يترك البحر الأحمر، عبر سيناء إلى دمشق ثم موانئ ساحل البحر المتوسط[8].

لقد كان طريق التجارة البري الذي يربط الشام بمصر، الذي يمر بمدينة الشوبك[9] بفلسطين ثم إلى الفرما[10] وبلبيس في مصر من أفضل طرق التجارة التي تربط بين الإقليمين، إلا أن الصليبيين في سنة 509هـ/1115م، احتلوا مدينة الشوبك ليقطعوا طريق التجارة الحيوي القائم بين الشام ومصر[11].

([1]) الأصفهاني: الفتح القسي، 188 .

([2]) تاريخ بلاد الشام في عهد الأتابكة والأيوبيين 490-650هـ، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام في الجامعة الأردنية، (عمان، 1998)، 234 .

([3]) العبادي وآخرون: تاريخ البحرية، 293 .

([4]) الصائغ: عصر الملك الكامل، 143 .

([5]) ف. هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة: أحمد محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، 1985)، 52، 58 .

([6]) الكرك: حصن مشهور بناحية الشام ومعقل مشهور . الحميري: الروض المعطار، 493 .

([7]) التكريتي: الأيوبيون، 372 .

([8]) محمود محمد الحويري: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد (عصر الحروب الصليبية)، دار المعارف، (القاهرة، 1979)، 124 .

([9]) الشوبك: قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمان وآيلة والقلزم قرب الكرك . الحموي: معجم البلدان، 370/3 .

([10]) الفرما: هي أول مدن مصر من جهة الشمال، بينها وبين البحر الأحمر ثلاثة أميال.الحميري: الروض المعطار،439.

([11]) الحموي: معجم البلدان، 370/3 ؛ المقريزي: الخطط، 632/1 .

لكن قيام نور الدين محمود بتوحيد مصر والشام تحت حكمه ترتب عليه ازدياد نشاط التبادل التجاري بين الجانبين، حقيقة أن سيطرة الصليبيين على حصن الكرك والشوبك، مكنتهم في أول الأمر من اعتراض طريق القوافل المتنقلة بين مصر والشام ولكن نور الدين محمود ومن بعده صلاح الدين لم يسكتا عن ذلك التهديد[1]، حتى تمكن السلطان صلاح الدين من استعادة حصن الشوبك ومدن ساحلية أخرى في سنة 583هـ/1187م[2]، وتأمين طرق القوافل في تلك المنطقة الهامة التي تعتبر حلقة الوصل بين البلدان العربية[3]. وصار يسلك هذا الطريق على الرمل[4]، فسلكه المسافرين من حينئذ إلى أن تولى السلطنة في مصر الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل، فأنشأ بأرض السباخ، على طرف الرمل بلدة عرفت بالصالحية في سنة 644هـ/1246م، فأقام بها، وأقام بها السلاطين من بعده[5].

وكان هذا الطريق من أهم طرق الاتصال الحضاري في العصر الأيوبي، فقد ذاع صيت مدينة دمشق في العصر الأيوبي –بوجه خاص- بفضل موقعها الجغرافي كنقطة تلاقي البضائع القادمة من مصر وبلاد العرب والمتجهة إلى الشمال، والبضائع الواردة من تجارة غرب آسيا بكميات هائلة، يذهب جزء منها إلى مصر لأن العلاقات بين دمشق والقاهر، كانت نشيطة في العصر الأيوبي لاسيما بعد أن توحد البلدان تحت الحكم الأيوبي[6]. حيث كان لتجار الشام الدور البارز في نقل البضائع والسلع إلى مصر، فقد عرفت مصر توافد أعداد متواصلة من التجار الشاميين، وكانت إحدى هذه الوفود التجارية هم التجار الذين وفدوا مصر صحبة نجم الدين أيوب والد صلاح الدين عندما استدعاه إلى مصر في بداية حكمه للبلاد، حيث تذكر المصادر التاريخية : "أن السلطان الناصر صلاح الدين أرسل إلى الملك العادل نور الدين –رحمه الله- يطلب أن يرسل إليه والده نجم الدين أيوب، فجهزه نور الدين وسيّر معه عسكراً واجتمع معهم من التجار خلق كثير، وانضاف إليهم من كان له مع صلاح الدين أنس وصحبه"[7].

وتبدو التجارة –من أول وهلة- من أكثر ميادين النشاط الاقتصادي حيوية، حيث لقيت التجارة الاهتمام الوافر والرعاية الكبيرة على الصعيدين الرسمي والشعبي ويتضح ذلك من خلال الأدبيات الغزيرة التي ألفت عن التجار والتجارة، هذه الأدبيات التي تمدح التجار وترفع من شأنهم الاجتماعي في العصور الوسطى[8].

فعلى الرغم من اهتمام الأيوبيين بالحرب وتتبع فلول العدو الصليبي والقضاء على محاولاته، فإنهم لم يغفلوا شؤون الأمن، ووجهوا عنايتهم إلى رفاهية الشعب مادياً ومعنوياً من خلال اهتمامهم بالتجارة[9]، وما يرتبط بنشاطها من خلال إسقاط السلطان صلاح الدين المكوس والضرائب التي كانت مفروضة على أهل مصر[10]، وكانت أولى القوافل الشامية الوافدة إلى

([1]) عاشور: مصر والشام، 129-130 .

([2]) المقريزي: الخطط، 632/1 ؛ العريني: الشرق الأدنى، 201/1 ؛ شلبي: التاريخ الإسلامي، 165/5.

([3]) عاشور: مصر والشام، 130 .

([4]) الرمل: هذا الرمل ممتد في الأرض، ويسميه بعضهم الرمل الهبير، وطوله من وراء جبل طيء إلى أن يتصل شرقاً بالبحر، ويمضي من وراء جبل طيء إلى أرض مصر، ثم إلى بلد النوبة، ويمتد إلى البحر المحيط مسيرة خمسة أشهر . المقريزي: الخطط، 513/1 .

([5]) المقريزي: الخطط، 633/1 .

([6]) هايد: تاريخ التجارة، 182 .

([7]) ابن الأثير: الكامل، 352/11 ؛ أبو شامة: الروضتين، 98/2 ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، 340/2 ؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 185/1.

([8]) فيصل السامر: "نهضة التجارة العربية في العصور الوسطى الإسلامية"، مجلة المؤرخ العربي، العدد (17)، تصدرها الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، بغداد، (1981)، 61 .

([9]) سنية قراعه: مساجد ودول، ط1، مكتب الصحافة الدولي، (د.م ، 1958)، 171 .

([10]) السيوطي: حسن المحاضرة، 17/2 .

مصر دون أن تدفع أي ضريبة أو مكس في سنة 583هـ/1187م[1]. لتشهد القاهرة في عصر صلاح الدين عهداً جديداً من الازدهار التجاري[2].

فكان من نتائج هذا الاهتمام أن أصبح عصر الدولة الأيوبية عصر ازدهار وتطور ونمو التجارة سبق الأقاليم والدول الأخرى، وقد سمح السلطان صلاح الدين بحرية التجارة سواء بالاستيراد أو التصدير براً أو بحراً وشملت التجارة المصريين والأجانب وكفل حماية التجار وبضائعهم وكان عصراً جديداً لازدهار الاقتصاد وكان سابقاً لعصره في تحديث نظم التجارة الدولية وإلغاء الحوافز الجمركية مما كان له الأثر الإيجابي على تطور الحركة التجارية بين مصر وغيرها من الأقاليم الإسلامية ومنها الشام[3].

ومن اهتمامات الدولة الأيوبية بالتجارة وطرقها، فقد أصبحت الطرق التجارة آمنة في ذلك العصر لكثرة الخفراء الذين يحرسون الطرق والقوافل[4].

وشهدت مصر في العصر الأيوبي وجود عدة مراكز تجارية لمختلف العراقيين والشاميين وغيرهم، يعقدون فيها صفقاتهم التجارية ويخزنون فيها بضائعهم ويتمتعون بحرية تامة في مزاولة شعائرهم والطقوس الخاصة بهم، وكان حق إغلاق هذه المراكز التجارية متروكاً للسلطة الحاكمة بما يتلائم ومصالحها[5]. ومن هذه المراكز التجارية التي يرد إليها التجار الشاميين مركز في بقطيا "وهي أكثر الجهات متحصلاً وأشدها على التجار تضييقاً وعندهم ضرائب مقررة لكل نوع يؤخذ عن نظيرها"[6].

كما أدى الانفتاح التجاري لمصر مع الشام في العصر الأيوبي إلى ازدياد النشاط التجاري فيها بالإضافة إلى الاهتمام بالمنشآت التجارية ومنها الأسواق التي احتوت أصنافاً كثيرة من البضائع، حيث يذكر القلقشندي وهو يصف القاهرة "زخرت القاهرة بالدور الضخمة والمنازل الرحبة والأسواق الممتدة والخرانق[7] الفاخرة"[8].

وكان للتجارة بين الشام ومصر الأثر الكبير في حياة الناس، وفي أحوال معيشتهم وفي ميزانيات الحكومات ومشروعاتها. وقد اشتغل كثير من سكان مصر والشام بالتجارة وأثروا من ورائها، كما أنها أوجدت أعمالاً وصناعات لم تكن معروفة من قبل، ونشطت صناعات أخرى محلية، كصناعة الأقمشة الحريرية في تنيس والإسكندرية ودمياط، وكان يصدر منها إلى الخارج لبلاد الشرق وأوربا كميات كبيرة فائضة عن الحاجة المحلية[9]. أما أثر التجارة في تنشيط الزراعة في مصر فقد برز عن طريق محاولة الاستفادة من إمكانيات مصر الزراعية وهو ما دفع باتجاه تحسين أحوال الفلاحين، وتخفيض المكوس دعماً للنشاط التجاري[10].

فمن المواد الصناعية التي وصلت إلى مصر من الشام التحف الزجاجية التي اشتهرت بها حلب، فيذكر القزويني عن حلب "ومن عجائبها سوق الزجاج، فإن الإنسان إذا اجتاز بها لا يريد أن يفارقها، لكثرة ما يرى فيها من الطرائف العجيبة والآلات اللطيفة تحمل إلى سائر البلاد

([1]) المقريزي: السلوك، 99/1 .

([2]) شاندور: صلاح الدين الأيوبي، 106 .

([3]) العكيدي: التنظيمات، 95.

([4]) المقريزي: السلوك، 74/1 .

(3) M.A. Cook: Studies in the economic history of the middle east from the rise of Islam to the present day, London University press 1970, 55.

([6]) القلقشندي: صبح الأعشى، 466/3 .

([7]) الخرانق: ومفردها خرنق وهي اسم حوض . ومصنعة الماء . ابن منظور: لسان العرب، 1147/13 .

([8]) صبح الأعشى، 366/3 .

([9]) سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 56 .

([10]) القلقشندي: صبح الأعشى، 466/3-467 ؛ المقريزي: الخطط 298/1.

للتحف والهدايا"[1]. كما كانت بباب بزاغة وهي من أعمال حلب أسواق "يعمل فيها كرباس[2] كثير ويحمل إلى مصر..."[3].

وعرفت دمشق بصناعتها البارعة للقسي وتفوقت على الكثير من المدن في هذا المجال، ولما كانت القاهرة مركز السلطنة وعاصمتها، فقد كانت تستورد هذه القسي من دمشق لاستخدامها في الحروب، وأثرت في مجال صناعتها في مصر حتى قيل "وفيها (القاهرة) صُناع للقسي كثيرون متقدمون ولكن قسي دمشق بها يضرب المثل وإليها النهاية..."[4].

كما استعمل في ديوان الإنشاء قطع الورق الشامي لغرض الكتابة، بنوعيه : قطع الشامي الكامل "وعرض درجة عرض الطومار[5] الشامي في طوله ؛ وهو قليل الاستعمال بالديوان، إلا إلا أنه ربما كتب فيه بعض الكتابات". والقطع الصغير "وهو في عرض ثلاثة أصابع مطبوقة من الورق المعروف بورق الطير، وهو صنف من الورق الشامي رقيق للغاية. وفيه تكتب ملطفات الكتب وبطائق الحمام"[6]. حيث كانت مصر أكبر مستورد للورق الشامي الذي اشتهر بجودته، لأن نوعية الورق المصري لم تكن بمستوى الورق الشامي[7].

وقد ترتب على انتشار الأعداد الكبيرة من أشجار الزيتون في مدينة عكا إلى ظهور صناعة زيت الزيتون، وقد تميزت زيوت عكا بجودتها إلى درجة أن شهرتها تجاوزت مدينة عكا وعرفتها أسواق المدن الأخرى، وان عملية استخراج الزيت من ثمرة الزيتون قديمة قدم شجرة الزيتون، إلا أن هذه الصناعة قد تطورت بمرور الزمن[8]. ويبدو أن مصر كانت واحدة من هذه البلدان التي يصدر إليها هذا الزيت بحكم موقعها القريب من عكا، بواسطة التجار الوافدين من الشام. ولتلعب نابلس أيضا التي عرفت بإنتاجها الكبير للزيتون، دوراً مهماً في تصدير الزيت منها إلى مصر[9].

وكان التجار ينزلون في الفنادق والخانات في القاهرة، ببضائعهم من بلاد الشام من الزيت والشيرج والصابون والدبس والجوز واللوز والخرنوب والرب، ومن التفاح والكمثرى والسفرجل الواصل من البلاد الشامية إنما يباع في وكالة قوصون[10] إذا قدم، وفيها ينقل إلى سائر أسواق القاهرة ومصر ونواحيها[11]. وللشام دور مهم في رفد مصر وغيرها من أقاليم العالم الإسلامي، بالحركة والنشاط التجاري من خلال تصديرها لأنواع المنتجات الزراعية، وقد أشار ابن العديم إلى حركة التبادل التجاري بين حلب والعراق ومصر قائلاً "وحلب من أجمل

([1]) آثار البلاد، 183-184 .

([2]) الكرباس: نوع من أنواع القماش . علي نجم عيسى: حلب في العهد الأيوبي (579-658هـ/1183-1258هـ)، دراسة سياسية حضارية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (جامعة الموصل، كلية الآداب، 1999)، 86 .

([3]) الحموي: معجم البلدان، 303/1 .

([4]) الحجازي وآخرون: النجوم الزاهرة، 29 .

([5]) الطومار: يكتب به السلطان علاماته على المكاتبات والولايات ومناشير الإقطاع. القلقشندي: صبح الأعشى، الأعشى، 51/3 .

([6]) القلقشندي: صبح الأعشى، 191/6-192 .

([7]) ناصر خسرو: سفرنامة، تحقيق: يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، (بيروت، 1993)، 48 ؛ محمد أحمد زيود: زيود: حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العصر الطولوني حتى نهاية العصر الفاطمي، دار الفكر، (دمشق، 1992)، 340 .

([8]) علي سلطان عباس: مدينة عكا في العهدين الأيوبي والمملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، (كلية الآداب، جامعة الموصل: 1997)، 86 .

([9]) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، 60 .

([10]) قوصون: هذه الوكالة بمعنى الفنادق والخانات ينزلها التجار ببضائعهم من بلاد الشام. المقريزي: الخطط،576/2.

([11]) المقريزي: الخطط، 576/2-577 .

المدن وأنفسها ولها من الكور والضياع ما يجمع سائر الغلات النفيسة وكان بلد معرة مصرين إلى جبل السماق بلد التين والفستق والسماق وحبة الخضراء يخرج عن الحد في الرخص ويحمل إلى مصر والعراق ويجهز إلى كل بلد وبلد الأرثاب والأرتاح"[1].

كما وصل إلى مصر خشب الصنوبر، من حصن التينان وهو حصن على شاطئ البحر بين بياس والمصيصة في الشام[2].

وصدرت معرة النعمان[3] وصيدا التين والزيتون والفستق والزبيب إلى مصر[4]، كما عرفت حلب بتصدير الفستق الأخضر الذي اشتهرت به إلى مصر[5]. كما حمل إلى مصر الحديد من بيروت[6]. وعرفت الشام بتصدير القدور النحاسية وقد أشار إلى ذلك ناصر خسرو في زيارته لمصر حيث يقول "ورأيت قدوراً من النحاس الدمشقي كل واحد منها يسع ثلاثين منا"[7].

كما لعبت الشام دوراً في تجارة العطور، لاسيما إذا ما عرفنا أن دمشق امتازت بأنواع الروائع العطرية ومن أبرزها ماء الورد الدمشقي[8]، الذي كان في غاية القبول عند المصريين ويدخل ماء الورد في العلاج حيث يصفه الأطباء للمرضى[9]. كما صدرت الشام الثلج إلى مصر وقدر ما كان يصل يومياً إلى القصر السلطاني بأربعة عشر حملاً من الثلج[10] إلا أن الثلج كان قليل الاستعمال في مصر[11].

ومن التجار الذين وفدوا من الشام إلى مصر، عفيف الدين عبد الله بن محمد الأرسوفي العسقلاني المعروف بابن الأرسوفي[12]، وأبو الخطاب العليمي عمر بن عبد الله الدمشقي التاجر السفار المتوفى سنة (574هـ/1178م)، الذي كتب الكثير عن تجارته بالشام ومصر والعراق[13] وأبو المفضل مكرم أبي حمزة بن محمد بن أحمد بن سلامة بن أبي جميل بن أبي الصقر الدمشقي التاجر السفار المتوفى سنة (635هـ/1231م) الذي كان يقدم مصر كثيراً لغرض التجارة[14]. ورضي الدين عثمان بن يوسف بن حيدرة الدمشقي التاجر المتوفى سنة (658هـ/1259م) الذي كان يسافر بالتجارة إلى مصر ومات فيها[15]. والمجد أبو العباس أحمد بن المسلم بن حماد الأزدي الدمشقي التاجر المتوفى سنة (666هـ/1267م) الذي رحل في تجارته إلى مصر والإسكندرية[16].

([1]) كمال الدين عمر بن أحمد بن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، (بيروت، (بيروت، د.ت)، 60/1 .

([2]) ابن العديم: بغية الطلب، 223/1 .

([3]) معرة النعمان: مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماه ماؤهم من الآبار وعندهم الزيتون الكثير والتين . الحموي: معجم البلدان، 156/5 .

([4]) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، 62، 67 .

([5]) أبو الفضل محمد بن الشحنة: الدرر المنتخب في تاريخ حلب، دار الكتاب العربي،(سورية، 1984)،252

([6]) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، 62 .

([7]) سفر نامة، 104 .

([8]) الحسين: موسوعة الحضارة العربية، 283 .

([9]) ابن الشحنة: الدرر المنتخب، 252 .

([10]) ناصر خسرو: سفر نامة، 108 .

([11]) المقريزي: الخطط، 94/1 .

([12]) المقريزي: الخطط، 440/3 .

([13]) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 248/4 .

([14]) المنذري: التكملة، 265/6-266 ؛ الذهبي: سير، 111/14 .

([15]) الصفدي: الوافي، 342/19 .

([16]) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 322/5 .

ومن الأمراء القادمين من الشام ممن لعب دوراً في المجال الاقتصادي في مصر، الأمير فخر الدين أبو المنصور جهاركس[1] الناصري ألصلاحي المتوفى سنة(608هـ/1121م) الذي تنسب إليه عمارة القيسارية الكبرى بالقاهرة، وقد ذكر جماعة من التجار أنهم لم يروا لها نظيراً في البلدان في حسنها وعظمها وأحكام بنائها[2].

4. الضرائب :

تعتبر الضرائب من أهم منابع الثروة وماليتها في الدولة، ليكون لها كيان تحافظ به على نفسها وعلى ضوء الثروة يتم ترتيب النفقات أو مصاريف الدولة. ولما كانت الدولة الأيوبية تمتلك مؤسسات إدارية يقدم ملكوها من خلالها خدمات اجتماعية وعمرانية وتنظيمات عسكرية، كل هذا كان يتطلب الأموال من أجل مواجهة الإنفاق[3].

وكانت الدولة الفاطمية في مصر قد فرضت المكوس على الصادر والوارد من البضائع المختلفة سواء أكانت من الغلات الزراعية، والمنتجات الصناعية أم السلع الأجنبية الواردة إلى مصر[4]. ولما قامت الدولة الأيوبية بمصر عمل السلطان صلاح الدين على رفع أكثر هذه المكوس[5] والضرائب[6]، بدلاً من أن يثقل كاهل المصريين بالضرائب من أجل السلاح والإنفاق والإنفاق على جيوشه، إلا أن السلطان صلاح الدين عمل عكس ذلك ليخفف هذه الضرائب إن لم يعمل على رفعها بالكامل[7]، من أجل كسب قلوب المصريين وترويضهم على حبه، فالتفوا حوله حوله وقد ازدادوا به عزاً ومجداً لوطنهم العظيم[8].

وقد أخذ صلاح الدين فكرة وعملية رفع الضرائب والمكوس في مصر عن حكام بلاد الشام في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر ميلادي، عندما حرص نور الدين محمود بن زنكي على رعاية الفلاحين وإصلاح أمورهم، فقد ألغى في سنة 550هـ/1154م جميع المكوس والضرائب، ولم يبقى سوى الجزية والخراج التي راعى أن تكون معتدلة مراعاة للظروف التي تمر بها البلاد[9]. كما رفع العادل نور الدين محمود في سنة 567هـ/1171م رسوم المظالم والمؤن في جميع البلاد التي بيده، "فأزالها وعفى رسومها"[10].

ويذكر أبو شامة رواية سمعها عن قاضي القضاة بهاء الدين بن شداد، يقول فيها "حكى لي السلطان الملك الناصر صلاح الدين قال : أرسلني الملك العادل نور الدين إلى عمي أسد الدين شيركوه- وكان لا يفعل شيئاً إلا بمشورته- فقال : أمضِ وقل لأسد الدين : قد حظر في بالي ان أبطل هذه الضمانات بأسرها والمؤن والمكوس. وَخُذ رأيه في ذلك. قال فجئت إليه وانتهيت إليه ما قال لي. فقال : امضِ وقل له : يا مولانا إذا فعلت ذلك فالأجناد الذين أرزاقهم على هذه الجهات من أين تعطيهم، وتحتاج إليهم للغزاة وخروج العساكر ؟ فقال السلطان صلاح

([1]) جهاركس: بمعنى أربعة أنفس بالعربي، وهو لفظ أعجمي معربة "استار" والاستار أربع أواقي . ويقال سمي سمي جهاركس لأنه أُشتري بأربعمائة دينار، أبو شامة: الذيل، 121 ؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، 381/1.

([2]) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 381/1 ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، 63/13.

([3]) التكريتي: الأيوبيون، 377 .

([4]) المقريزي: الخطط، 298/1 ؛ سيد الأهل: أيام صلاح الدين، 103 ؛ عبد المنعم: تاريخ مصر، 247 .

([5]) المكوس: جمع مكس: النقص والظلم ودراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق في الجاهلية، أو دراهم كان يأخذه المصدق بعد فراغه من الصدقة . ابن منظور: لسان العرب، 4248/47 .

([6]) القلقشندي: صبح الأعشى، 466/3-467 ؛ المقريزي: الخطط، 298/1 ؛ السيوطي: حسن المحاضرة، 17/2 ؛ ابن إياس: تاريخ مصر، 70/1 .

([7]) ضيف: تاريخ الأدب العربي، 52 .

([8]) قراعه: مساجد ودول، 64 ؛ عبد المنعم: تاريخ مصر، 247 ؛ شلبي: التاريخ الإسلامي، 160/5 .

([9]) محمد: المجتمع الإسلامي، 179 .

([10]) ابن العديم: زبدة الحلب، 334/2 .

الدين : فقلت لعمي : هذا أمرٌ قد ألهمه الله إياه، فساعده عليه. فصاح في وقال : امضِ إليه وقل له ما أقول لك. قال : فعدت إلى نور الدين، فانتهيت إليه ما قال لي عمي، فقال : امضِ إليه وقل له إذا كنا نغزو من هذه الجهات نتركها ونعقد ولا نخرج. قال : فعدت إلى عمي وقلت له ما قال. فقال : قل له : إن تركوك تقعد فجيد هو فراجعته في ألا يثبطه عن ذلك، فصاح فيَّ وقال : امض إليه وقل له ما أقول لك. قال : فجئت إليه وقلت له ذلك، فترك ذلك مدة، ثم أمضى ما كان عزم عليه"[1].

وبهذا يمكن أن نستنتج أن السلطان صلاح الدين كان على اطلاع عن قرب على مشروع رفع المكوس والضرائب من خلال خدمته لنور الدين محمود في الشام، وكان راغباً في هذا العمل، فما أن تولى السلطنة بمصر حتى باشر العمل به، حتى يذكر أبي شامة أن السلطان صلاح الدين اسقط منها ما يزيد عن مليون دينار ومليوني إردب[2]، وبالمثل اسقط عن أهل الذمة ضرائب كثيرة حتى قالوا إن كل ما كانوا يدفعونه للدولة لم يكن يزيد عن مائة وثلاثين ألف دينار[3].

ولكن هذا لا ينفي بقاء ضرائب أخرى كانت موجودة قبل قيام الدولة الأيوبية، فأبقى عليها صلاح الدين على وضعها كالضريبة المفروضة على الفول والحمص، وتراوحت قيمتها بين (2.5) إلى (3) أرادب للفدان الواحد[4]. أما قطيعة القمح والشعير فقد فرض عليها في آخر سنة 567هـ/1171م عن كل فدان (3) أرادب، وفي سنة 572هـ/1176م صارت (2.5) إردب[5].

وقد أورد ألصفدي نصاً ذكر فيه المرسوم الذي كتبه القاضي الفاضل بإسقاط مكوس مصر والقاهرة عن السلطان صلاح الدين "جملة ذلك في كل سنة مائة ألف دينار ؛ تفصيل ذلك : مكس البهار وعمالتها ثلاثة وثلاثون ألفاً وثلاث مائة وأربعة وستون ديناراً ؛ مكس البضائع والقوافل وعمالتها تسعة آلاف وثلاث مائة وخمسون ديناراً ؛ منفلت الصناعة عن مكس البَزَّ [6] الوارد إليها والنحاس والقصدير والمرجان والمفاضلات خمسة آلاف ومائة وثلاثة وتسعون ديناراً ؛ الصادر عن الصناعة بمصر ستة آلاف وست مائة وستة وستون ديناراً ؛ سمسرة التمر ثلاثة مائة دينار ؛ الفندق بالمنية عن مكس البضائع ثمان مائة وستة وخمسون ديناراً ؛ رسوم دار القند ثلاثة آلاف ومائة وثمانية دنانير ؛ رسوم الملح والخشب الطويل ست مائة وستة وسبعون ديناراً ؛ رسوم القلب المنسوبة إلى بلبيس، والبوري المنسوب إلى فأقوس[7] مائة دينار ؛ رسوم التقتيش بالصناعة عن البهار وغيره مائتان وسبعة عشر ديناراً ؛ ختمه أرمنت عن الوارد إليها سبعة وستون ديناراً ؛ فندق القطن ألفا دينار؛ سوق الغنم بالقاهرة وبمصر والسمسرة وعبور الأغنام بالجيزة ثلاثة آلاف وثلاث مائة وأحد عشر ديناراً؛ عبور الأغنام والكتان والأبقار بباب القنطرة ألف ومائتا دينار؛ واجب ما يرد من الكتان الحطب إلى الصناعة مائتا دينار ؛ رسوم واجب الغلاف كالحبوب الواردة إلى الصناعة والمقس والمنية والجسر والتبانين

([1]) الروضتين، 121/1 .

([2]) الإردب:مكيال مصري للحنطة يتألف من ست ويبات (الويبة تعادل 12.168 كغم قمح)، وكل ويبة ثمان أقداح كبيرة أو ستة عشر قدحاً صغيراً . ويصعب تحديد الإردب بدقة . فالتر هنتس: المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة: كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية،(عمان، 1970)، 58، 80 .

([3]) أبو شامة: الروضتين، 79/2 ؛ المقريزي: الخطط، 302/1 .

([4]) ابن مماتي: قوانين الدواوين، 260 ؛ القلقشندي: صبح الأعشى، 449/3 ؛ نوري: سياسة، 426 .

([5]) ابن مماتي: قوانين الدواوين، 259 ؛ القلقشندي: صبح الأعشى، 448/3 .

([6]) البز: هو السلاح الذي يدخل فيه الدرع والمغفر والسيف. أبي بكر محمد بن الحسن البصري ابن دريد: جمهرة جمهرة اللغة، ط1، دائرة المعارف العثمانية، (حيدر آباد، 1351هـ)، 29/1 .

(3) فأقوس: مدينة في حوف مصر الشرقي، وهي آخر ديار مصر من جهة الشام في الحوف الأقصى.الحموي:معجم البلدان ،232/4.

ومقالب جزيرة الذهب وطموه وبّر الدوح ستة آلاف دينار؛ مكس ما يرد إلى الصناعة من الأغنام ستة وثلاثون ديناراً ؛ الأغنام البيتوتية اثنا عشر ديناراً؛ العرصة والسرناوي بالجيزة ومكس الأغنام مائة وتسعون ديناراً ؛ منفلت الفيوم عما يرد من الكتان من القبلة من البضائع الواردة من الفيوم وغيره أربعة آلاف دينار ومائة وستون ديناراً؛ مكس الورق المجلوب إلى الصناعة ورسم التفتيش مائتا دينار؛ الجفنة بساحل الغلة والأقوات والرسائل سبع مائة وثمانية وستون ديناراً، فلت العريف بالصناعة الصادرة مائتا دينار؛ دار التفاح والرطب بمصر والعرصة بالقاهرة ألف وسبع مائة دينار؛ ابن المليجي مائتا دينار؛ دار الجبن ألف دينار؛ مشارفة الجزارين مائتان وأربعون ديناراً ؛ واجب الحلي الوارد من الوجه البحري والقطن ألف وعشرون ديناراً ؛ رسم سمسرة الصفا ألف ومائتا دينار؛ منفلت الصعيد مائة وأحد وستون ديناراً ؛ خاتم الشرب والدبيقي ألف وخمس مائة دينار ؛ مكس الصوف مائتا دينار ؛ نصف الموردة بساحل المقس أربعة عشر ديناراً ؛ دكة السمسار ثلاث مائة وخمسون ديناراً ؛ منفلت التعريف بالصناعة وجملة البهار والبضائع مائتان وستة عشر ديناراً؛ الحلفاء الواردة من القبلة بالجسر والتبانين خمسة وثلاثون ديناراً ؛ رسوم الصفا والحمراء ورسوم دار الكتان ستون ديناراً ؛ حماية الغلات بالمقس ودار الجبن مائة وأربعون ديناراً ؛ الحلفاء الواردة على الجسر ومعدية المقياس مائة دينار؛ خمس البرنية بالجيزة عشرون ديناراً ؛ تل التعريف بالصناعة ثمانية وعشرون ديناراً؛ منفلت الغلات بمعدية جزيرة الذهب عشرة دنانير؛ رسوم الحمام بساحل الغلة خمس مائة وأربعة وثلاثون ديناراً ؛ مكس ما يرد من البضائع إلى المينة مائة وأربعة وثمانون ديناراً ؛ مسلخة شطنوف البرانية مائتا دينار؛ سوق السكريين خمسون ديناراً ؛ رسوم سمة الجمل بالشارع وسوق وردان تسعة عشر ديناراً ؛ واجب الفحم الوارد إلى القاهرة عشرة دنانير؛ معدية الجسر بالجيزة مائة وعشرين ديناراً؛ سمة ألبقري أربعون ديناراً؛ السمة بدار الدباغ تسعة عشر ديناراً ؛ سمسرة الحبس ألجيوشي ثلاث مائة واثنا عشر ديناراً؛ وكان الدهن ومعصرة الشيرج والخل الحامض بالقاهرة خمس مائة دينار ؛ الخل الحامض وما معه أربعمائة وخمس دنانير ؛ بيوت الغزل والمصطبة ثلاث مائة وخمسون ديناراً وذبائح الدلالة ثلاث مائة دينار ؛ سمسرة الكتان ثلاث مائة دينار، رسوم حماية الصناعيين أربع مائة دينار؛ مربعة العسل مائتان واثنان وثلاثون ديناراً؛ معادي جزيرة الذهب وغيرها ثلاث مائة دينار؛ خاتم الشمع بالقاهرة ثلاث مائة وستون ديناراً، زريبة الذبيحة سبع مائة دينار؛ معديتا المقياس وانبابة مائتا دينار؛ حمولة السلجم ثلاث مائة وثلاثون ديناراً ؛ مكس دكة الدباغ ثمان مائة دينار؛ سوق الرقيق خمس مائة دينار؛ معمل الطبري مائتان وأربعون ديناراً ؛ سوق منبوبة ثمانمائة وأربعة وستون ديناراً ؛ ذبائح الضأن بالجيزة ورسوم ساحل الصنط عشرة دنانير؛ نخ السمك خمسة دنانير؛ تنور الشوي مائتا دينار ؛ نصف الرطل من مطابخ السكر مائة وخمسة وثلاثون ديناراً؛ خاتم الحلي مائة وعشرون ديناراً ؛ سوق الدواب بالقاهرة ومصر أربع مائة دينار؛ سوق الجمال مائتان وخمسون ديناراً ؛ قبان الجنان ثلاثون ديناراً ؛ واجب طاقات الأدم ستة وثلاثون ديناراً؛ منفلت الخام بالشاشيين ثلاثة وثلاثون ديناراً ؛ أنولة القصار[1] والجير أربعون ديناراً ؛ أعوان المراكب المنشأة والخضر والحلفا ستة وثلاثون ديناراً ؛ بيوت الفروج ثلاثون ديناراً ؛ الشعر والطارات أربعة دنانير؛ رسوم الصبغ والحرير ثلاث مائة وأربعة وثلاثون ديناراً؛ وزن الطفل مائة وأربعون ديناراً ؛ معمل ألمزر[2] أربعة وثمانون ديناراً ؛ الفاخوريات بالقاهرة ومصر مائتان وستة وثلاثون ديناراً "[3].

([1]) القصار: هو غسال الثياب أصله من قصر الثياب أي جمعها وحبسها عنده .ابن دريد: جمهرة اللغة، 358/2 .

([2]) ألمزر: هو نبيذ الشعير والحنطة والحبوب، وقيل نبيذ الذرة خاصة، وقيل انه ضرب من الأشربة . ابن منظور: لسان العرب، 4191/46 .

([3]) الوافي، 61/29، 63 .

وفي سنة 572هـ/1176م أقدم السلطان صلاح الدين في مصر على إبطال المكوس والضرائب التي كانت تؤخذ من الحجاج القادمين من الغرب مروراً بمصر إلى الحجاز، وعوض أمير مكة بمال أقطعه إياه بمصر، ليحمل إليه في كل سنة ثمانية آلاف إردب إلى مكة[1]. فكانت هذه كما يذكر ابن جبير: "من مفاخر السلطان صلاح الدين وأثاره التي أبقاها ذكراً جميلاً للدين والدنيا..."[2].

ومن أجل تنظيم عملية جباية الضريبة الخراجية، أصدر السلطان صلاح الدين في سنة 567هـ/1171م، مرسوماً بتحويل السنة القبطية (الشمسية) إلى السنة الهجرية (الهلالية)[3] وسبب هذا الإجراء هو لتجنب ما حدث من تأخير عملية التحويل مرتين أواخر زمن الفاطميين[4]. كما أن الخراج في الإسلام مرتبط بالتاريخ الهجري وشهوره فتنقل من وقت إلى وقت، فربما كان استحقاق الخراج في أول سنة من السنين الهجرية ثم يترك الحال إلى أن يصير في أواخرها في السنة التالية فيكون الخراج منسوباً للسنة السابقة واستحقاقه في السنة اللاحقة، لأن السنة الشمسية تزيد على السنة الهجرية أحد عشر يوماً، وهذا ما دفع إلى تحويل السنة الخراجية[5].

ثانياً : الميدان الاجتماعي:

هناك فرق كبير بين حياة الناس في ظل دولة مدنية وهي الدولة الفاطمية التي عنيت بالدعوتين السياسية والمذهبية، وبين حياتهم في ظل دولة عسكرية وهي الدولة الأيوبية، التي قضت العمر كله من أوله إلى أخره في التصدي للحملات الصليبية ومحاربتها[6].

لقد جاءت الدولة الأيوبية من الناحية الزمنية بين دولتين اتصفتا بالبذخ وامتازت الحياة الاجتماعية فيهما بالإسراف والمبالغة في إحياء الحفلات هما دولة الفاطميين ودولة المماليك التي قامت بعد انتهاء دولة الأيوبيين. ولكن دولة الأيوبيين أحاطت بنشأتها ظروف غير الظروف التي أحاطت بالدولة السابقة لها أو الدولة اللاحقة بها، إذ ولدت الدولة الأيوبية في وقت كان الصليبيون بالشام أشد ما يكونون قوة وعنفاً، حتى ان خطرهم كان يهدد بابتلاع البلدان الإسلامية ليس في الشام فقط، بل شمل أيضاً مصر والحجاز لذلك لم تكن هناك أي فرصة أمام الأيوبيين ليحيوا حياة اجتماعية مترفة[7]، وهذا ما انعكس على حيا المجتمع في الشام ومن بعده في مصر، لاسيما إذا ما عرفنا أن الناس على دين ملوكهم.

ويذكر القاضي بهاء الدين بن شداد نص عن حب السلطان صلاح الدين للجهاد وشغفه فيه فيقول "كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آلته، ولا اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة..."[8].

فنجد أن فكرة الحرب والجهاد هي الغالبة على حياة السلاطين، وتغلبت عقيدة الجهاد على أحاسيس الناس ومشاعرهم، مما لم يترك مجالاً للتوسع في الاحتفالات وحياة الترف. وإذا توفر الوقت أحياناً في العصر الأيوبي لحياة الترف، فإن المال لم يتوفر عندئذ لأن حراسة القوافل

([1]) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 338/8 ؛ المقريزي: الخطط، 115/3.
([2]) أبو الحسين محمد بن أحمد: رحلة ابن جبير، دار صادر، (بيروت، 1959)، 30 .
([3]) القلقشندي: صبح الأعشى، 71/13، 73 ؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، 324/3 .
([4]) ربيع: النظم المالية، 41 .
([5]) المقريزي: اتعاظ الحنفا، 324/3 .
([6]) حمزة: الحركة الفكرية، 57 .
([7]) عاشور: مصر والشام، 132 .
([8]) النوادر، 21 .

وتحصين المدن والقلاع وإعداد الجيوش وبناء السفن والأساطيل وصناعة العدد والآلات الحربية، كل ذلك كان كفيلاً بأن يستنفذ كل درهم في خزانة سلاطين بني أيوب. فإذا كان أول ما فكر فيه المعز لدين الله الفاطمي (359-365هـ/969-975م) عند وصوله إلى مصر كان تعمير القاهرة والعناية بأسواقها ومنشآتها، ورعاية الحفلات الدينية والمبالغة في إحيائها، وفي حين كان أول ما اهتم به صلاح الدين الأيوبي في الدور الأول من سلطنته هو بناء قلعة الجبل وبناء سور القاهرة وتحصين الثغور[1].

فالحياة الاجتماعية لعموم الناس تكاد تكون متشابهة في مصر في أثناء حكم الدولتين الفاطمية والأيوبية باستثناء حياة الخلفاء والأمراء ورجال القصر[2] مع حدوث بعض التغيير في الحياة الاجتماعية بعد دخول الأيوبيين إلى مصر.

فلو نظرنا إلى طبقات الشعب في مصر في ذلك الوقت، نراه يبدأ بالخليفة أو السلطان، ومن حوله الحاشية التي تتألف من الوزير والأمراء ومن هم في مرتبة هؤلاء. ثم تلي طبقة الموظفين في ديوان الإنشاء وديوان الجيش والبحرية، وتسير مع هذه الطبقة –أو تعلو عليها في بعض الأحيان- طبقة القضاة ورجال الحسبة والشرطة. ثم تأتي بعد ذلك طبقة التجار، وطلبة العلم، وأخيراً طبقة العامة وهم الذين يؤلفون في العادة الجزء الأكبر من الهرم الاجتماعي[3].

لكننا نجد إن الحياة الاجتماعية في بعض المدن المصرية ظلت محافظة على طابعها الذي تميزت به قبل مجيء الفاطميين، وكانت أقرب ما تكون ذات طابع شامي، بحكم عدم تأثرها بالمذهب الفاطمي، ومن أهم هذه المدن هي مدينة الإسكندرية، حيث كانت الحياة فيها مختلفة عما هو في القاهرة في العصر الفاطمي، ولعلها أقرب إلى الحياة في عسقلان في الشام[4].

1. الرحلات والهجرات الشامية :

إن الهجرة من الشام إلى مصر كانت منذ أقدم العصور، حيث كان طريق الهجرة ميسوراً على مر العصور التاريخية لوجود قنطرة ثابتة مفتوحة للعبور، وهي طريق سيناء[5] وقد تنوعت الهجرات الشامية إلى مصر في طبيعتها ما بين فردية وجماعية،بحكم العلاقة بين مصر والشام التي كانت متوطدة منذ أقدم العصور وحتى عصور متأخرة[6].وهناك أسباب عديدة لهذه الهجرات،أهمها:

- غنى بلاد النيل (مصر) بالقياس إلى بلاد الشام، حيث كانت غنية جداً بأراضيها الواسعة الخصبة التي تنتج إنتاجاً وفيراً من الحبوب والغلال.
- ضيق العيش في المجتمع الشامي، فطبيعة البلاد على الأغلب جبلية صخرية صعبة المسالك، قليلة الإنتاج الزراعي، مما دفع أعداداً كبيرة من أبناء المجتمع الشامي للبحث عن مصادر للثروة والجاه.
- تعرض بلاد الشام في فترات كثيرة لأزمات اقتصادية خانقة مما أدى إلى نزوح وهجرة البعض من الشام إلى المناطق المجاورة لاسيما إلى مصر.

([1]) عاشور: مصر والشام، 132 .

([2]) حمزة: الحركة الفكرية، 66 .

([3]) القلقشندي: صبح الأعشى، 4/6-43 ؛ حمزة: الحركة الفكرية، 66-67 .

([4]) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 7/220-221 ؛ شكيل: القاضي الفاضل، 69 .

([5]) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي: البيان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق: عبد المجيد عابدين، ط1، عالم الكتب، (القاهرة، 1961)، 91 .

([6]) السيد سمير عبد المقصود: الشوام في مصر منذ الفتح العثماني حتى أوائل القرن التاسع عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، 2003)، 14-15 .

- ومن العوامل الأخرى التي أدت إلى الهجرة من الشام إلى مصر، العوامل الدينية والثقافية، حيث شهدت مصر نشاطاً بارزاً في مجال العلوم الدينية والثقافية في العصر الأيوبي.
- كما كانت التجارة من العوامل التي دفعت الى هجرة مجموعة من أهل الشام إلى مصر والإقامة بها، حيث كانت مصر مركزاً تجارياً مهماً بين المشرق والمغرب.
- ولا يغيب عنا عامل الاستقرار الأمني في مصر التي لم تشهد أحداثاً دامية –الحروب الصليبية- فإن عامل الاستقرار له دور كبير في جذب أعداد كبيرة من المهاجرين من الشام، لتوظيف أموالهم وطاقاتهم في مشاريع طويلة الأمد هناك[1].

فكان لهذه العوامل مجتمعة الدور البارز في اجتذاب أعداد كبيرة ممن وفد من الشام للعمل والاستقرار بمصر، وليحققوا نجاحات باهرة في ميادين العمل التي تخصصوا بها.

لقد عرفت مصر هجرة القبائل العربية القادمة من الشام، ومن أبرز هذه القبائل بنو جرم الذين ينسبون إلى ثعلبة بن عمرو بن الغوث بن طيء من القحطانية، قدموا إلى مصر في عصر الدولة الأيوبية ونزلوا بأمر السلطان صلاح الدين في المنطقة الشرقية[2].

أما بنو سنبس، وهم بطن من القحطانية فقد استقروا في إقليم البحيرة طوال العصر الأيوبي، ومن المعلوم إن بني سنبس كانوا قد هاجروا من فلسطين إلى مصر قبل قيام الدولة الأيوبية[3].

كما انتقل قسم من آل ربيعة –وهم بطن من طيء القحطانية- من مساكنهم في بلاد الشام إلى مصر أيام الملك الكامل الأيوبي، وكان لآل ربيعة عند السلاطين "حرمة كبيرة وبيت عظيم"[4].

ومن الهجرات الأخرى الجامعة التي أرسلها نور الدين محمود مع والد صلاح الدين نجم الدين أيوب ملبياً طلب صلاح الدين، فضم الوفد جماعة من أهل صلاح الدين، والأمراء المقربين منهم والتجار[5]، ويطلق عليهم الأعوان، فيعرفهم أحمد رمضان أحمد محمد بأنهم "خاصة السلطان أو الأمير أو رفاقه يصحبونه ويجالسونه ويعيشون معه في منزله وتكون لهم رواتب يتقاضونها، وهم غير الندماء والشعراء، وإنما هم رجال من أهل التعقل والثقة يختصهم الملك أو الأمير أو العامل بمجالسته فيشاورهم في أموره ويركن إليهم في مهامه، وهم لذلك لهم دالة عليه وقد يكون بعضهم من مشايخ أهله أو بعض ذوي قرباه"[6]. كما قدم وفد آخر من الشام الشام إلى مصر بعد زوال الخلافة الفاطمية ضم مختلف الناس وقد استقبل السلطان صلاح الدين هذا الوفد وخلع عليه مذهبات من بقايا ما أخذه من القصر الفاطمي، فأحسن استضافتهم على خير ما يكون[7].

وكان ضمن هذه الهجرات الشامية التي عرفتها مصر، العلماء والشيوخ والمريدون حتى تجاوز عددهم الآلاف وأخذ كل منهم مكانه في ميادين التربية والتوجيه. بفعل حالة التكامل الاجتماعي التي عاشته الدولة الأيوبية التي عملت على تدعيم هذا العمل[8]. وقد تخرج بهؤلاء العلماء وتلاميذهم أعداد من أهالي الإسكندرية ومدن مصر الأخرى ممن تشربوا روحها وعلموا

([1]) عبد المقصود: الشوام في مصر، 19، 21 .

([2]) أبو العباس أحمد القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط2، دار الكتاب اللبناني، (بيروت، 1980)، 195-220 ؛ المقريزي: البيان والإعراب، 6-7، 117-118.

([3]) القلقشندي: نهاية الإرب، 296 ؛ المقريزي: البيان والإعراب، 7، 9 .

([4]) القلقشندي: نهاية الإرب، 100-101 .

([5]) ابن الأثير: الكامل، 344/11 ؛ المقريزي: الخطط، 114/3 .

([6]) المجتمع الإسلامي، 90 .

([7]) المقريزي: السلوك، 47/1 .

([8]) الكيلاني: هكذا ظهر، 259 .

في معاهدها ودافعوا عنها. ومما زاد روح الجهاد في الإسكندرية اشتعالاً، وجود العساقلة اللاجئين الذين ساهموا في الدفاع عنها[1].

وقد لعبت الخوانق في مصر أدواراً دينية واجتماعية وثقافية هامة في حياة المجتمع الإسلامي منذ نشأتها[2]، فقد أقام هؤلاء العلماء والشيوخ في هذه الأماكن (الخانقاوات) سواءً من من جاء من الشام ومن البلاد الأخرى، ورافقهم أولادهم ونسائهم وقد أقمن معهم هناك، وكن يفرغن معهم للعبادة والتزهد[3].

وقد تمتع هؤلاء العلماء القادمين من الشام في ظل الدولة الأيوبية سواء في عهد صلاح الدين أوفي عهد خلفائه من بعده ببحبوحة العيش وصاروا يختارون للشورى والوزارة، وكان لآرائهم أثرها في سير الحوادث. وقد جمع بعضهم كثيراً من المال، فكانت له الثروة والقصور والجواري الحسان بسبب تحسن وضعهم الاقتصادي والاجتماعي مما جمعوا من رعاية وهبات السلاطين والأمراء[4]. وخير مثال على ذلك زين الدين علي بن إبراهيم بن نجا الدمشقي المتوفى سنة (599هـ/1202م)[5]، أحد علماء الحنابلة في ذلك العصر، كان يعيش عيشاً أطيب من عيش الملوك في الأطعمة والألبسة، وكان عنده أكثر من عشرين سرية من أحسن النساء كل واحدة منهن بألف دينار[6].

والى جانب هؤلاء القادمين إلى مصر من الشام فقد لجأ الى مصر مجموعة من اليعاقبة السوريون أيام الحروب الصليبية، فعلى الرغم من أنه في عهد صلاح الدين نفسه "نودي بمنع أهل الذمة من ركوب الخيل والبغال، من غير استثناء طبيب ولا كاتب". إلا ان سلاطين بني أيوب كانوا يميزون أتباع هذا المذهب (اليعاقبة) على غيره من مذاهب النصارى بمصر، فقد تول هؤلاء القادمين من الشام من اليعاقبة كرسي البطريكية على غيرهم من المذاهب الأخرى وصار هذا المنصب حكراً لهم[7].

2. الأعياد والمناسبات :

إن رخاء مصر، وحظها العظيم من الثروة، مهد لأبنائها أن يأخذوا لأنفسهم بحظ كبير من متع هذه الحياة، وان يعنوا أيما عناية بأيام يحتفلون فيها، وقد تعددت هذه الأيام في عصر الدولة الفاطمية، التي وضعت لها نظماً وتقاليد تتبع بدقة[8]، وكانت هذه المواسم والأعياد على طول السنة، وهي "موسم رأس السنة، وموسم أول العام، وموسم عاشوراء، ومولد النبي (ﷺ)، ومولد علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ومولد الحسن والحسين ومولد فاطمة الزهراء (رضي الله عنها)، ومولد الخليفة الحاضر، وليلة أول رجب، وليلة نصفه، وليلة أول شعبان، وليلة نصفه، وموسم ليلة رمضان، وغرة رمضان، وسماط رمضان، وليلة الختم، وموسم عيد الفطر، وموسم عيد النحر، وعيد الغدير، وكسوة الشتاء، وكسوة الصيف، وموسم الفتح الخليج، ويوم النوروز، ويوم الغطاس،

([1]) شكيل: القاضي الفاضل، 70-71 .

([2]) عاصم محمد رزق: خانقاوات الصوفية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، ط1، مكتبة مدبولي، (القاهرة، 1997)، 23/1 .

([3]) حمزة: الحركة الفكرية، 111 .

([4]) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 515/8 ؛ سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 88 .

([5]) المنذري: التكملة، 417/2-418 ؛ أبو شامة: الروضتين، 50/3 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، 398/42-400، سير، سير، 212/13-214 ؛ زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب بن رجب: الذيل على = طبقات الحنابلة، تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة السُنة المحمدية، (القاهرة، 1952)،436/1، 440 ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 340/4-341.

([6]) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، 515/8 ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، 35/13 .

([7]) المقريزي: السلوك، 77/1 ؛ حمزة: الحركة الفكرية، 347-348 .

([8]) بدوي: الحياة الأدبية، 20-21 .

ويوم الميلاد، وخميس العدس، وأيام الركوبات"[1]. وعلى الرغم من أن هذه الأعياد تخص الفاطميين أنفسهم كحكام، إلا أن جمهور الشعب المصري لم يكن يأنف من الاشتراك في هذه الاحتفالات والإقبال على ما تقدمه الدولة خلالها من بذخها وثرائها ممثلاً في الهبات والموائد والصدقات التي لا يخلوا عيد من أعياد الدولة الفاطمية[2].

وكان هناك متنزهات لأهل مصر والقاهرة، لاسيما في أيام النوروز والميلاد والمهرجان ونحو ذلك من أيام اللهو والقصف والعزف، فكانوا يخرجون إلى بركة الجيش وبركة الفيل وغيرها، فيضربون المضارب الجليلة والسرادقات والقباب[3]، حيث انتشر الغناء والطرب في عصر الدولة الفاطمية، وهذا راجع لتشجيع الخلفاء وكبار رجال الدولة، فلم يكن يخلو مجلس من مجالسهم الخاصة ومآدبهم المتعددة من سماع الغناء والموسيقى ومشاهدة فنون الرقص والألعاب المسلية[4].

ولما جاءت الدولة الأيوبية إلى مصر، لم يكن عندها من وقت فراغ يسمح بإقامة كل هذه الأعياد، ولا كان عندها المال الوفير لتنفقه في غير الحرب التي فرضتها على نفسها ضد الصليبيين[5]، ولكن هذا لا يعني أن الحياة الاجتماعية في مصر في العصر الأيوبي صارت مجدبة كل الجدب أو خشنة كل الخشونة[6]، بل نجد أن الأيوبيين قد ساروا على نسق الفاطميين في الاحتفال بالأعياد[7]، ولكن في غير إسراف وبدون تهتك، إلا أنهم ألغوا بعض الأعياد السابقة السابقة وحوروا وغيروا في البعض الآخر من تلك الأعياد وطبعوها بطابع جديد[8]، وتلونت بلون طباعهم، حتى في المأكل والمشرب والملبس. ولم تزل تتلون بتلون القوة الحاكمة ومن جاء معها من الشام[9].

والراجح أن الأيوبيين كانوا يحتفلون بالأعياد الحربية أكثر من احتفالهم بالأعياد الأخرى، فإذا رجع السلطان أو أحد الأمراء من غزوة له ضد الصليبيين، أو انتصر على الخارجين عن سلطة الدولة، أمر فدقت له البشائر في عموم البلاد، ومد السماط فنالت منه طبقات الشعب على اختلافها، وكان اليوم يوم فرح وسرور يعم الشعب، ويصول فيه الشعر، وتوزع فيه العطايا[10].

فعلى الرغم من معرفة مصر لكثير من مواكب الاحتفالات في العصر الفاطمي، إلا أنها لم تعرف موكب تقليد السلطنة (تتويج)، الذي لم يدخل مصر إلا على أثر دخول لقب وحكم السلاطين، وقد عرفت مصر مواكب تقليد السلطنة لأول مرة بعد سقوط الخلافة الفاطمية[11]، وأول من ركب بشعار السلطنة في مصر كان السلطان صلاح الدين الأيوبي[12]. وبهذا يكون هذا التقليد محاكاة لما كان يحدث في الشام من وصول خلع السلطنة والتقليد ومواكب السلطنة الزنكية التي حكمت الشام، والتي أخذت هذا التقليد عن السلاجقة في العراق.

([1]) المقريزي: الخطط، 347/2 .

([2]) عبد المنعم عبد الحميد سلطان:الحياة الاجتماعية في العصر الفاطمي، دار الثقافة العلمية، (الإسكندرية، 1999)، 151 .

([3]) مبارك: الخطط التوفيقية، 76/1 .

([4]) سلطان: الحياة الاجتماعية، 215 .

([5]) حمزة: الحركة الفكرية، 59 .

([6]) عاشور: مصر والشام، 133 .

([7]) بدوي: الحياة الأدبية، 21 .

([8]) المقريزي: الخطط، 358/1 ؛ السلوك، 136/1 ؛ مبارك: الخطط التوفيقية، 68/1 .

([9]) مبارك: الخطط التوفيقية، 68/1 .

([10]) حمزة: الحركة الفكرية، 60 .

([11]) ابن واصل:مفرج الكروب، 219/1-220؛المقريزي:السلوك،46/1؛ بهجت:أثر الحضارة السلجوقية،89/1-90 .

([12]) ابن واصل: مفرج الكروب، 220/1 ؛ المقريزي: السلوك، 46/1 ؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك، 155.

وقد لعب القاضي الفاضل الذي عاش وعمل في ظل الدولتين الفاطمية والأيوبية، دوراً بارزاً في معاونة السلطان صلاح الدين في القضاء على الأعياد التي عرفتها مصر زمن الفاطميين من خلال أقواله وأفعاله التي خدم بها دولة الأيوبيين بمصر[1].

3. آثار أخرى في الحياة الاجتماعية :

كان الناس يخضعون في القرنين السادس والسابع الهجريين لنظم اجتماعية لم يسبق مشاهدتها في العالم الإسلامي، كانت نظماً طارئة أساسها الإقطاع الذي ساد العصور الوسطى في أوربا والشرق[2].

فعلى الرغم من محاسن هذا النظام إلا أن هذا النظام كان له مساوئه، لأن ذلك أدى إلى تقسيم الناس إلى طبقتين متناقضتين إحداهما طبقة الأمراء وأصحاب الإقطاع ويلحق بهم التجار الكبار، وأصحاب الثراء من المقربين من الأمراء والسلاطين، ثم الطبقة الثانية، وهي الطبقة الدنيا طبقة الشعب الفقير، وهي طبقة لا تملك شيء[3].

وقد حرص الأمراء الأيوبيين على الاحتفاظ بعلاقات حميمة مع الفلاحين في مصر عن طريق زيارتهم للقرى في مواسم الحصاد، وكذلك كان الحال في الشام[4].

وكان طبيعياً أن ينتج عن هذا الاضطراب وعدم التوازن في دخل الناس التجاء بعض الناس إلى كثير من ألوان الكسب غير المشروع، وغير الطبيعي الذي لا يأتي عن طريق زراعة الأرض وفلاحتها، ولا عن طريق التجارة، ولا الأعمال المهنية المختلفة، ولا عن الصناعة، إنما يأتي عن طرق ملتوية قد يكون أساسها السعي لاجتذاب الرزق من السلاطين والأمراء والطبقة الغنية عن طريق الاستجداء والتملق في صور مختلفة ومتعددة[5]. إلا أن المستوى الاجتماعي والخلقي لم ينحط في مصر كما حدث في أوربا في العصور الوسطى، بسبب الدور المهم الذي لعبته المدارس وأثرها على الناحية الاجتماعية[6].

أما التصوف فهو ليس مجرد ظاهرة دينية فحسب، وإنما كان ظاهرة اجتماعية أيضاً. ولم يلبث أن وفد على مصر في العصر الأيوبي الكثير من زعماء المتصوفة ومشايخهم من الشام وغيرها من بلدان العالم الإسلامي، فأشاعوا بمصر حياة الزهد والتقشف مما ترك أثراً خطيراً في المجتمع المصري[7]. فكان التصوف أصلح نبات يلائم مصر البلاد العظيمة الحظ من الحرارة والدفئ فسيطر التصوف على الحياة الاجتماعية في مصر، سيطرة شملت جميع أنحائها، وزادت من دفئها[8].

ومما لا شك فيه أن كثيراً من المصريين اتخذوا طريق التصوف حتى ينعموا بما كان ينعم به غيرهم من سكان الخوانق أي أنهم اتخذوا التصوف وسيلة للحياة الدنيا، ومنهم من اتخذ التصوف مذهباً دينياً له[9]. وقد ظهرت جماعات في المجتمع المصري لم يكن لهم عمل في الحياة إلا أنهم متدينون صالحون، وكان الأمير أو السلطان يتقرب للناس بتقريب هؤلاء وإيوائهم وهكذا ظهرت بدعة التكايا، ورباطات الصوفية، وكانت تضم جماعات وأشتاتاً من الناس من

([1]) شكيل: القاضي الفاضل، 55 .
([2]) سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 47 ؛ الأدب في عصر صلاح الدين، 44 .
([3]) القلقشندي: صبح الأعشى، 4/50-51 ؛ سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 48.
([4]) توجيتاكا ساتو: "نظام الإقطاع في مصر والشام في العصر الأيوبي"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد العدد (38)، مجلد (10)، جامعة الكويت، الكويت، (1990)، 188 .
([5]) سلام: الأدب في عصر صلاح الدين، 45-46 .
([6]) بيومي: قيام الدولة الأيوبية، 238 .
([7]) المقريزي: الخطط، 3/570 ؛ عاشور: مصر والشام، 117 .
([8]) حمزة: الحركة الفكرية، 94 .
([9]) حسين: دراسات في الشعر، 65-66 .

مختلف بلدان العالم الإسلامي، يأكلون ويشربون ويدعون للأسياد بالخير والبركة إذا ما استمر المدد، أو يدعون عليهم بالويل والثبور والنكال إذا انقطعت رواتبهم أو تساء معاملتهم[1] وبذلك يكون التصوف من الظواهر الهامة التي شهدتها مصر في العصر الأيوبي[2].

لاشك أن الذي ساعد على تقبل المؤثرات الشامية في مصر هو احتفاظ المصريين للكثير من عاداتهم وتقاليدهم ومذهبهم الذي عرفوا به قبل دخول الفاطميين لمصر[3].

([1]) المقريزي: الخطط، 571/3 ؛ سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 49 .

([2]) سلام: الأدب في العصر الأيوبي، 70 .

([3]) عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ مصر الاجتماعي منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث، دار الفكر العربي، العربي، (القاهرة، د.ت)، 121 .